مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية

إعجاز القرآن من خلال كتاب «الإتقان في علوم القرآن»

عرض وتحليل

إعداد

أ.د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار

أستاذ الدراسات العليا بقسم الدراسات القرآنية - كلية التربية
جامعة الملك سعود -الرياض

- من مواليد عام ١٣٨٤هـ بمدينة الزلفي بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ونال منها درجة الماجستير بأطروحة "وقوف القرآن وأثرها في التفسير"، ثم الدكتوراه عام ١٤٢١هـ بأطروحة " التفسير اللغوي للقرآن الكريم"، وكلاهما مطبوع.
- من أعماله المنشورة: "فصول في أصول التفسير"، "أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم"، "تفسير جزء عم"، "المحرر في علوم القرآن"، "التحرير في أصول التفسير"، "مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير"، "بحوث محكمة في علوم القرآن وأصول التفسير"، "شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية"، "شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي".
- البريد الشبكي: attyyar@gmail.com

قدم للنشر في ٢٠٢٦/٥/٤م ؛ وقبل للنشر في ٢٠٢٦/٥/١٤م

الملخص

يستعرض هذا البحث ويناقش علم إعجاز القرآن في كتاب "**الإتقان في علوم القرآن**" للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ).

وقد قدَّم بين يدي ذلك بمدخل بيَّن فيه خلاصة مفهوم إعجاز القرآن، وفوائده وأثره وعلاقته بالعلوم الأخرى عمومًا وعلم التفسير خصوصًا، مع بيان هل علم إعجاز القرآن نقلي أو اجتهادي؟ وذكر أبرز ما صُنِّف في إعجاز القرآن، ثم استعرض خلاصة ما ذكره السيوطي في نشأة القول بإعجاز القرآن وتاريخه، إضافة إلى ذكر أبرز مصادر السيوطي في هذا العلم.

ثم ناقش ما ذكره السيوطي في ستة مباحث: الأول: نشأة القول بإعجاز القرآن وتاريخه. والثاني: مناقشة تعريف المعجزة. والثالث: الآثار العقدية المرتبطة بمفهوم المعجزة. والرابع: أنواع آيات (معجزات) الأنبياء. والخامس: وجه إعجاز القرآن. والسادس: تنبيهات حول معجزة القرآن.

ومن أبرز النتائج:

١. أن السيوطي لم يأت بجديد في تعريف المعجزة، مع وجود علماء سبقوه كان لهم ملاحظات على هذا التعريف. كما أنه لم يكن مجرد ناقل في موضوع إعجاز القرآن، بل كان له استدراكات على بعض من نقل عنهم.

٢. أن الكلام في إعجاز القرآن أثر من آثار صفة الكلام الإلهي.

٣. أنه يلزم في المعجزة أن تكون دالة على صدق النبي، ولا يلزم أن تكون مما اشتهر به قوم النبي.

الكلمات المفتاحية: إعجاز القرآن، معجزة، كلام الله، الصرفة، التحدي.

  

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجا، وجعله آيةً خالدة، وبياناً محكماً، وصلاة وسلاماً على من أوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإن كتاب **"الإتقان في علوم القرآن"** للإمام جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ) يُعدُّ موسوعة جامعة ومرجعاً أساسًا في علوم القرآن الكريم، جمع فيه مؤلفه شتات ما تفرق في المصنفات السابقة، وهذَّبه ورتَّبه، فكان بحق إنجازاً علمياً فريداً، ومعلماً شامخاً في المكتبة القرآنية.

وقد تناول السيوطي في كتابه علمًا بارزًا من علوم القرآن، ألا وهو إعجاز القرآن، الذي شغل العلماء وسامعي القرآن منذ نزول الوحي إلى يومنا هذا، ويأتي هذا المبحث في الإتقان امتداداً لجهود أسلافه من الأئمة، كالخطابي والرماني والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني، لكنه جمع أبرز ما ذكر في وجوه إعجاز القرآن ولخصها في صفحات محدودة، وكان متابعا لمن تقدمه في كثير من مسائل هذا العلم الجليل، ومن ثم اخترت عرض هذا المبحث وتحليل أبرز مسائله ومناقشتها والتعليق عليها.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. مركزية إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية.

٢. كثرة تناول العلماء له.

٣. أثر كتاب الإتقان في دراسات من جاء بعده.

٤. وجود مسائل ذكرها السيوطي في الإعجاز، هي بحاجة إلى شرح أو استدراك، وهذا ما يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء عليه، من خلال قراءة نقدية تحليلية لمبحث الإعجاز في "الإتقان".

أهداف البحث:

١- شرح مغلقات موضوع إعجاز القرآن الذي طرحه السيوطي.

٢- التعقيب والاستدراك على السيوطي -وغيره- في بعض ما طرحه في موضوع الإعجاز.

٣- تقريب موضوع إعجاز القرآن بحسب واقع معجزات الأنبياء.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة، تشتمل على: أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهدافه.

التمهيد، وفيه:

أولًا: مدخل إلى (إعجاز القرآن)، وجاء فيه المسائل الآتية:

أ- مفهوم (إعجاز القرآن).

ب- فوائد علم (إعجاز القرآن).

ت- علاقة علم (إعجاز القرآن) بأنواع علوم القرآن الأخرى.

ث- هل علم (إعجاز القرآن) نقليّ أم اجتهاديّ؟

ج- أثر علم (إعجاز القرآن) في علم التَّفسير.

ح- المصنفات في علم (إعجاز القرآن).

ثانيًا: خلاصة ما ذكره السيوطي في النوع الرابع والستين: إعجاز القرآن.

ثالثًا: مصادر السيوطي في علم إعجاز القرآن.

المبحث الأول: نشأة القول بإعجاز القرآن وتاريخه.

المبحث الثاني: مناقشة تعريف المعجزة.

المبحث الثالث: الآثار العقدية المرتبطة بمفهوم المعجزة.

المبحث الرابع: أنواع آيات (معجزات) الأنبياء.

المبحث الخامس: وجه إعجاز القرآن.

المبحث السادس: تنبيهات حول معجزة القرآن.

الخاتمة: وفيها النتائج والتوصيات.

التمهيد

أولًا: مدخل إلى (إعجاز القرآن):

أ- مفهوم (إعجاز القرآن):

عرف السيوطي المعجزة فقال: «اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة». ولم يذكر سوى ذلك في معنى الإعجاز. وسيأتي في المسائل العلمية مناقشة هذا التعريف، إضافة إلى بيان المفهوم اللغوي للإعجاز والمعجزة.

والذي يهمنا هنا بيان مفهوم مصطلح (إعجاز القرآن)، ويمكن أن نقول بأن المراد به: إظهار عجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه.

ب- فوائد علم (إعجاز القرآن):

من أبرز فوائد هذا النوع: تمييز كلام الله سبحانه وتعالى عن كلام غيره، وذلك بالنظر إلى المسلك الأدبي، والمسلك الكلامي المتعلق بثبوت مصدرية هذا الكتاب، وثبوت صدق النبي ﷺ في كون هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى.

ت- علاقة علم (إعجاز القرآن) بأنواع علوم القرآن الأخرى:

- له علاقة بالوحي وأنه من عند الله من خلال التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن، وهذا من جانبه العقدي.
- كذلك له علاقة بالبلاغة القرآنية من جانبه الأدبي، بل كان هو الأصل في ظهور علم البلاغة واعتناء العلماء بها وبأنواعها وتقسيماتها.
- كما أنه له علاقة بالتفسير؛ لأنه لا يظهر إلا بعد فهم المعنى.
- كذلك يرتبط أيضا ببلاغة القرآن.

ث- هل علم (إعجاز القرآن) نقليّ أم اجتهاديّ؟

علم إعجاز القرآن من علوم القرآن الاجتهادية المحضة، إذ هو من اختراع المتأخرين ولم يرد عن السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم التكلم عنه.

ج- أثر علم (إعجاز القرآن) في علم التَّفسير:

ليس لعلم إعجاز القرآن أثر في علم التفسير ولا يتوقف معرفة المعنى عليه، بل العكس يتوقف معرفة إعجاز الآية على معرفة معناها.

وهذا خلافا للزمخشري الذي يرى أن معرفة البلاغة لازمة للمفسر، لكن نقول هذا النوع يتعلق بعلوم الآية لا بالتفسير، والتفسير جزء من علوم الآية؛ ومن ثم من أراد التصدي لمعرفة بلاغة القرآن وفصاحة نظمه فإن حاجته إلى هذا النوع أكيدة، لكن المفسر بمعنى المبين للمعاني لا يحتاج لعلم البلاغة(١)، ولكن يحتاجها من يبين ما وراء المعاني من بلاغة القرآن وإعجازه وغير ذلك، وبيان المعاني شيء، وبيان ما وراء المعاني شيء آخر.

ح- المصنفات في علم (إعجاز القرآن):

تعددت المصنفات في الإعجاز، وكان التأليف فيها على جانبين: التصنيف المفرد والتصنيف الضمني، وفيما يأتي بيان أبرز المؤلفات في كل منهما.

أولًا: التصنيف المفرد:

من أبرز المصنفات المفردة في إعجاز القرآن:

١. إعجاز القرآن، لمحمد بن يزيد الواسطي (ت: ٣٠٦).
٢. رسالة في إعجاز القرآن، لأبي عيسى الرماني (ت: ٣٨٤).
٣. بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨).
٤. إعجاز القرآن(٢)، لأبي بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣).

---

(١) المقصود أنه لا يحتاج علم البلاغة بجميع تفاصيله، وإن كان يحتاج لشيء منها.

(٢) ويعد من أشهر المؤلفات في إعجاز القرآن وأفضلها، وقد نقل السيوطي عن ابن العربي قوله: «ولم يُصنَّف مثل كتابه»، ومع هذا فلا يُستغنى عن المؤلفات التي تقدمت هذا الكتاب أو جاءت بعده إلى زمننا هذا في مسائل الإعجاز.

وفي المقابل لا يعني هذا أن جميع ما ذكره الباقلاني يُتلقى بالقبول والتسليم، بل إن هناك ملاحظات عليه، من ذلك أنه اختار معلقة امرئ القيس ليبين مزايا القرآن وما تميز به من بلاغة نظمه وحسن سبكه، وفصاحة

٥. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦).

٦. معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي (ت:٩١١).

ومن المصنفات المعاصرة:

٧. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦).

٨. مداخل إعجاز القرآن، لمحمود محمد شاكر (ت:١٤١٨).

ثانيًا: التصنيف الضمني: من ذلك:

أ- **كتب علوم القرآن**: ومن أبرزها:

١- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلم الدين السخاوي (ت: ٦٤٣)، وذلك في أحد أقسام كتابه، وهو القسم الثاني الذي عنون له بـ«الإفصاح الموجز في إيْضاح المعجز».

٢- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي (ت:٧٩٤)، وذلك في «النوع الثامن والثلاثين: معرفة إعجازه».

٣- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (ت: ٩١١)، وذلك في النوع الرابع والستين الذي نحن بصدده.

٤- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، لابن عقيلة المكي (ت: ١١٥٠)، وذلك في «النوع السادس والعشرين بعد المئة: إعجاز القرآن».

ب- **مقدمات كتب تفسير القرآن**: خصوصًا الكتب التي ذكرت فصلًا في إعجاز القرآن، كمقدمة تفسير الماوردي (ت: ٤٥٠)، وتفسير الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢)، وتفسير ابن عطية (ت:٥٤٢)، وتفسير القرطبي (ت: ٦٧١)، وتفسير ابن عاشور (ت:١٣٩٢)، وغيرها.

لفظه، وخلوه من التكلف والتعقيد، بخلاف الشعر العربي، الذي تعد معلقة امرئ القيس أبلغ ما قيل فيه، ومن هنا أتى إليها الباقلاني فنقضها وأظهر معايبها والمآخذ عليها، وغض الطرف عن محاسنها ومزاياها، وكان الأولى به أن يبين محاسنها لكي تتزن المقارنة، وقد عابه على ذلك محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ المقارنة بين المحمود من كل وجه مع المذموم من كل وجه نقص من قدر المحمود، على حد قول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا

ت- **كتب أخرى**: مثل: «تمهيد الدلائل» لأبي بكر الباقلاني (ت:٤٠٣)، وكتاب «المغني في أبواب التوحيد والعدل» للقاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي (ت: ٤١٥)[(١)]، و«كتاب الشفا في حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت: ٥٤٣).

ثانيًا: خلاصة ما ذكره السيوطي في النوع الرابع والستين: (في إعجاز القرآن)[(٢)]:

١- صدَّر السيوطي هذا المبحث بذكر من أفرد موضوع إعجاز القرآن بالتصنيف.

٢- ثم ذكر تعريف المعجزة، وأنها إما حسية وإما عقلية، وأن أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية ومن ثَمَّ انقرضت، بينما كان معجزة هذه الأمة القرآن عقلية، لذا بقيت؛ «ليراها ذوو البصائر، كما قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا**». أخرجه البخاري[(٣)].

٣- ثم ذكر أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحدٌ على معارضته بعد أن تحداهم بذلك، متدرجًا من طلب الإتيان بمثله إلى الإتيان بسورة من مثله، فلما عجزوا عن ذلك نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]. هذا وهم الفصحاء اللُّدّ، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعًا للحجة، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء وأشده حميةً، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه.

(١) وفيه مبحث "الكلام في ثبوت نبوة محمد صلوات الله عليه، وفي إعجاز القرآن، وسائر المعجزات الظاهرة عليه، عليه السلام" (١٦/ ١٤٣).

(٢) الإتقان (٥/ ١٨٧٣-١٩٠٥).

(٣) الإتقان (٥/ ١٨٧٣-١٨٧٤)، والحديث في صحيح البخاري (٧٢٧٤).

٤- ثم عقد السيوطي فصلًا ذكر فيه اختلاف الناس في أوجه إعجاز القرآن، مبتدأً ببيان مذهب الصَّرفة الذي ادَّعاه النظَّام المعتزلي، وهو قول فاسد نقضه السيوطي ومَن قبله وأثبتوا تهافته.

٥- ثم ذكر السيوطي أشهر ما قيل من أوجه أخرى لإعجاز القرآن، نقلًا عن عدد من أهل العلم، كالباقلاني والرازي والزملكاني وابن عطية وحازم القرطاجني والمراكشي والراغب الأصفهاني والسكاكي وأبي حيان التوحيدي والخطابي والزركشي والقاضي عياض كما سيأتي مناقشته في المسائل العلمية.

٦- ثم عقد فصلًا بعنوان "تنبيهات"، أورد فيها تسع مسائل متعلقة بإعجاز القرآن، هي:

الأولى: الاختلاف في قدر المعجز من القرآن.

الثانية: الاختلاف في هل يُعلم إعجاز القرآن ضرورة.

الثالثة: الاختلاف في تفاوت القرآن في مراتب الفصاحة.

الرابعة: ما قيل من الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر الموزون، مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره.

الخامسة: ما قاله بعضهم من أن التحدي إنما وقع للإنس دون الجن؛ لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربي.

السادسة: جواب الغزالي على السؤال عن معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

السابعة: في الجواب على السؤال الذي أثاره القاضي الباقلاني في قوله: إن قيل هل تقولون إن غير القرآن من كلام الله معجز كالتوراة والإنجيل؟

الثامنة: في قول البارزي في أول كتابه "أنوار التحصيل في أسرار التنزيل": «اعلم أن المعنى الواحد قد يُخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبَّر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ...».

التاسعة: في جواب الرماني على السؤال الذي أثاره بقوله: «فإن قال قائل فلعل السور القصار يمكن فيها المعارضة. قيل: لا يجوز فيها ذلك من قبل أن التحدي قد وقع بها فظهر العجز عنها في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ فلم يخص بذلك الطوال دون القصار...».

تنبيه:

ذكر السيوطي إعجاز القرآن بعد النوع الثالث والستين في الآيات المشتبهات، وذكر قبل هذا النوع مناسبات الآي والسور، أما الذي قبله فكان في فواصل الآي، وقبله بدائع القرآن، ثم قبله في الخبر والإنشاء، والذي قبله في الإيجاز والإطناب.

ولو أردنا الترتيب الأولى لمبحث إعجاز القرآن لوجدنا أنه ينبغي أن يكون بعد النوع الثامن والخمسين في بدائع القرآن، لأنه تكلم فيه عن عدد من الأنواع المتعلقة بعلم البلاغة، ولعل الأولى أن يختمها بمبحث إعجاز القرآن فيكون هو النوع التاسع والخمسين؛ لأن جزءا كبيرا منه متعلق بالبلاغة، ولا أدري عن الترتيب الذي سلكه المؤلف أكان مقصودًا وكان يرتب كتابه ترتيبًا ذهنيًّا أم أن الأمر كان مقصورًا على تناول مسائل علوم القرآن فحسب، فشذ عنه بعض التراتيب؟ وهذا الأمر من نافلة القول، إلا أنه يساعد على ترتيب الأفكار في الذهن واستحضار مسائلها بلا عناء.

ثالثًا: مصادر السيوطي في علم إعجاز القرآن:

١- يلاحظ أن السيوطي استفاد من كتاب الزركشي "البرهان في علوم القرآن" في هذا النوع، ولم يخالفه في التسمية أيضًا، مع أنه لم يسمِّ الزركشي إلا مرة واحدة[١].

٢- ذكر السيوطي ممن ألف في إعجاز القرآن: الخطابي، والرماني، والزملكاني والإمام الرازي، وابن سراقة، والقاضي أبو بكر الباقلاني.

---

(١) ينظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان (ص٣١٧).

٣- أن من عادة السيوطي الاعتماد على مصادر لم يذكرها الزركشي؛ لذا زاد في مصادره أربعة علماء لم ينقل عنهم الزركشي، وهم: الرماني (ت:٣٨٤)، وابن سراقة العامري (ت:٤١٠)، والراغب الأصبهاني (ت: بعد ٤٢٠) في تفسيره، والقاضي عياض (ت:٥٤٤) في الشفا[١].

  

(١) ينظر: علوم القرآن بين البرهان والإتقان (ص٣١١).

المبحث الأول

نشأة القول بإعجاز القرآن وتاريخه

لم يرد مصطلح إعجاز القرآن في الكتاب والسنة، كذلك لم يرد لفظ المعجزة فيهما دالاً على ما يجريه الله على يد أنبيائه ورسله من دلائل صدقهم، وإنما وردت ألفاظ أخرى كالآية، والبينة، والبرهان للدلالة على ذلك. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٦]، وقال تعالى أيضًا في قصة موسى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢] وغيرها من الآيات.

كذلك لم يرد استخدام لفظ المعجزة أو الإعجاز للدلالة على هذا المعنى خلال القرنين الأول والثاني الهجريين بحسب استقراء محمود محمد شاكر (ت:١٤١٨)، يقول رحمه الله: «إن لفظ (الإعجاز) في قولنا: (إعجاز القرآن) ولفظ (المعجزة) في قولنا: (معجزات الأنبياء)، كلاهما لفظ محدث مولَّد. وبيقين قاطع لا نجدهما في كتاب الله، ولا في حديث رسول الله ﷺ، ولم أجدهما في كلام أحد من الصحابة، ولا في شيء من كلام التابعين ومَنْ بَعْدَهم، إلى أن انقضى القرن الأول من الهجرة، والقرن الثاني أيضاً»[1].

وكانت بداية ظهور هذا المصطلح في القرن الثالث الهجري، ثم كان ذيوعه وانتشاره في القرن الرابع[2]، وكانت تلك البداية على يد المتكلمين خصوصا

(١) مداخل إعجاز القرآن (ص: ١٩).

(٢) وكذا عند بعض علماء السنة ممن كان له احتكاك بالمعتزلة من المتقدمين، كابن قتيبة (ت:٢٧٦) إمام أهل السنة في الأدب في وقته الذي طرح شيئًا من ذلك في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، أما من تقدمه من علماء أهل السنة فلم يكن لهم عناية بإعجاز القرآن، لأن مسألة صدق القرآن وكونه من عند الله مفروغ منها عندهم وقد انتهت وحسمت، واستقر لدى المسلمين دليل صدق القرآن، وقامت حجته.

المعتزلة[١]،كانوا ينحون ببحوثهم إلى المنحى العقلي المجرد عبر النظريات والفرضيات، إلى أن آل الأمر إلى اختلافهم في مفهوم إعجاز القرآن، بحسب أصول مذهب كل فرقة ومعتقداتها، قال ابن تيمية (ت: ٧٢٨): «والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء، ويسميها من يسميها من النُّظّار: (معجزات)، وتسمى: (دلائل النبوة) و(أعلام النبوة).

وهذه الألفاظ إذا سُمِّيت بها آيات الأنبياء، كانت أدلَّ على المقصود من لفظ (المعجزات)، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة، وإنما لفظ الآية والبينة والبرهان، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢] في العصا واليد، وقال الله تعالى في حق محمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٣، ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

ومن لا يثبت فعلا إلا لله يقول: المعجز هو الله، وإنما سُمي غيره معجزاً مجازاً[٢].

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إلا إذا فسر المراد به وذكر شرائطه ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي مُعْجِزاً الا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء -إن أثبت لهم خرق عادةٍ- سماها كرامة[٣]. ويقولون لخوارق الأولياء: إنها

(١) مداخل إعجاز القرآن (ص: ٢٠).

(٢) هذا قول الأشاعرة، وسيأتي نقاش هذه المسألة.

(٣) من الذين يثبتون خرق العادة لغير النبي الأشاعرة، وهم الذين يسمون ما ظهر للولي من خرق إعادة كرامة ولا يسمونه معجزة، أما بعض المعتزلة فلا يثبتون خرق الكرامة، وهم الذين أشار إليهم بقوله: «إن أثبتوا» فدل على أن قوماً لا يثبتونها، وهم بعض المعتزلة.

معجزات؛ إذ لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك، **بخلاف ما كان آية وبرهانا على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه**.

وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آية وبرهاناً، وهو الدليل والعلم على نبوة النبي، يمتنع أن يكون لغير النبي، وبسط هذا له موضع آخر»[(١)].

تنبيه:

بحثت عن سبب حديث المعتزلة عن إعجاز القرآن وحرصهم على ذلك غير ما ذُكر عنهم في ردهم على كلام بعض الزنادقة المشككين في القرآن، فوقع في ذهني أن ثمة صلة بين عقيدة المعتزلة في قولهم بأن القرآن مخلوق وبين حديثهم عن إعجاز القرآن، وتوضيح ذلك أن القول بأن القرآن مخلوق ينشأ عنه القول بأن إعجازه مخلوق وليس إعجازا ذاتيا، لأنه لا يوجد مواءمة بين القول بالإعجاز الذاتي والقول بأن القرآن مخلوق، وإثبات الإعجاز الذاتي للقرآن لا يكون إلا إذا كان القرآن كلام الله سبحانه وتعالى وليس مخلوقًا.

فترتب على قولهم بأن القرآن مخلوق ضعف موقفهم أمام الزنادقة، فجاؤوا بالقول بأن القرآن معجز ليغلقوا الباب في هذه المسألة، ولم يشر أحد من المعتزلة إلى هذا الاستنتاج فيما قرأتُ، لأن القول بخلق القرآن ضعيف ومن ثم سيكون موقفهم ضعيفًا، لذا تغافلوا عن بيان أثر قولهم بخلق القرآن في إعجازه، لكن من خلال النظر يتبين أن هذا أحد أسباب كلام المعتزلة في إعجاز القرآن ومحاولة إبرازه.

وأرى أيضًا أن مذهب النَّظام في وجه إعجاز القرآن -وهو القول بالصَّرفة- أكثر

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥: ٤١٢،٤١٩).

تناسقًا مع مذهب المعتزلة في خلق القرآن من كلام غيره من المعتزلة، وذلك أن مذهب النظام في الإعجاز أن العرب بمقدورهم الإتيان بمثل هذا القرآن لكن صرفهم الله عن ذلك، وإذا كان القرآن مخلوقا، فإعجازه مخلوق وليس ذاتيا، ولما كان الإعجاز ليس ذاتيا وإنما مخلوق فإن العرب سيقدرون على مثله، وإذا كانوا كذلك ولم يفعلوا فمرد ذلك إلى أنهم صُرفوا عنه، ومن ثم فمذهب النظَّام هذا يتناسق مع القول بأن القرآن مخلوق، أكثر من تناسق قول جمهور المعتزلة الذين ردوا على النظَّام، والله أعلم.

  

المبحث الثاني
مناقشة تعريف المعجزة

تقدم أن السيوطي عرَّف المعجزة بأنها: «أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة». وأنه لم يذكر سوى ذلك في معنى الإعجاز.

ولبيان مفهوم الإعجاز والمعجزة يلزمنا بيان المعنى اللغوي ثم الاصطلاحي:

أولاً: المعجزة في اللغة: المعجزة من مادة (عَجَزَ)، وهي تدل على القصور عن فعل الشيء، وهي ضدُّ القدرة؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة:٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:٤٤]. والعجوز سميت بذلك: لعجزها في كثير من الأمور.

قال ابن فارس :(ت:٣٩٥) «العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء؛ فالأول عجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز :أي ضعيف. وقولهم إن العجز نقيض الحزم فمن هذا؛ لأنه يضعف رأيه ويقولون " المرء يعجز لا محالة " ويقال :أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، ولن يعجز الله –تعالى– شيء، أي لا يعجز الله –تعالى– عنه متى شاء، وفي القرآن: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ [الجن:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [العنكبوت:٢٢]»[(١)].

فظاهر من الأصل الأول الذي نص عليه ابن فارس دلالة مادة (عجز) على عدم القدرة والاستطاعة على الشيء، فمن لم يستطع فعل شيء قيل: عَجَزَ عنه.

ثانيًا: المعجزة في اصطلاح المتكلمين: ولما كانت المعجزة من مصطلح المتأخرين، فإن تعريفَها يؤخذ منهم، وقد عرَّفها غير واحدٍ، واختلفوا في حدِّها وشروطها كما يختلفون في أي مصطلح حادث يدخله الرأي والاجتهاد، وأشهر تعريف لها ما ذكر السيوطي بأنها: «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة».

---

(١) مقاييس اللغة، مادة (ع ج ز).

ومأخذ هذا التعريف من كلام المعتزلة، وتلقاه عنهم الأشاعرة، واستمر إلى زمننا هذا، وتقدم أنه لم يأت في القرآن أو السنة تسمية الآية أو البرهان بالمعجزة، بل جاء لفظ: (الآية)، ولفظ: (البرهان)، على أننا سنسلك مسلك المؤلف في حديثنا هذا.

وعلى هذا التعريف إشكالات من جهات، أبرزها ما يأتي:

الأول: قولهم: «أمر خارق للعادة»:

ومناقشة هذا القيد في التعريف تقتضي أولا بيان مفهوم العادة عند أصحاب هذا التعريف -وأغلبهم من الأشاعرة-، ذلك أن العادة عندهم لا يقصد بها سنة الله الجارية في خلقه بصورة منتظمة دائمة، التي يكون مجرد تخلفها عن جريانها وانتظامها خرقاً للعادة، وإنما يقصدون بالعادة ما اعتاده الناس في زمن دون زمن، وفي مكان دون مكان، فهي إذن عادة نسبية، والخرق لها خرق نسبي. يقول الآمدي (ت:٦٣١): «لا يمنع أن يكون ما أتى به الرسول خارقا للعادة بالنسبة إلى عصره وبالنسبة الى قطره مع الذي تحدى له عليهم، فإن طَرْد العادة بشيء بالنسبة إلى بعض المخلوقات لا يمتنع من كونه خارقاً للعادة بالنسبة إلى بعضٍ آخر»(١).

ولما كانت العادة عندهم نسبية التبس عليهم الأمر، واحتاجوا إلى التفريق بين السحر والمعجزة؛ لكون السحر كذلك خرقاً لأمور نسبية(٢)، فاضطروا إلى وضع قيود أخرى يحصل بها التفريق بين السحر والمعجزة، وجعلوها أيضًا قيدًا في تعريف المعجزة، فمن ذلك:

---

(١) أبكار الأفكار للآمدي (٤/ ٥٧).

(٢) ينظر: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات، للباقلاني (ص:٩٤). حيث ذهب إلى الخارق النسبي الإضافي، وهذا النوع يتفاوت الخلق فيه، فيأتي أحدهم بأعظم مما أتى به الآخر، بينما الخارق الكلي لا يستطيع أحد أن يأتي به، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

١. أن يقترن خرق العادة بدعوى النبوة حتى يحكم بكونها معجزة.
٢. أن يسلم من المعارضة، بخلاف السحر فإنه لا يسلم من المعارضة.

وظاهر جداً أن هناك تباينا كبيراً بين مصطلح آيات الأنبياء ونظائره مما ورد في كتاب الله، وبين مصطلح المعجزة بمفهومهم، كما أن هناك تسوية بين خرق العادة المطلقة المختص بالأنبياء الذي لا ينبغي أن يشابههم في خرقه أحد من البشر، وبين خرق العادة النسبية لغيرهم.

وإذا أعدنا النظر من ناحية أخرى لجعله قيداً لازماً في تعريف معجزات الأنبياء وجدناه ينطوي على إشكالات أخرى، من أظهرها أنَّ هذا القيد ليس منضبطاً في المعجزات التي تظهر من الأنبياء، لمشاركة غيرهم في ظهور بعض خوارق العادات على يديهم، كما يظهر من الخوارق على يد بعض الأولياء، أو على يد السحرة والكهان، ولهذا قد يأتي الساحر بما لا يستطيعه مَن حوله من البشر، بل قد يتحدَّاهم في أن يأتوا بما أتى، فلا يستطيعون، ولا سبيل لهم إلا أن يتعلموا ما تعلَّم.

قال ابن تيمية (ت:٧٢٨): «... ولكن ليس مجرد كونه خارقًا للعادة كافيًا لوجهين:

أحدهما: أن كون الشيء معتادًا وغير معتادٍ أمرٌ نسبيٌّ إضافيٌّ، ليس بوصف مضبوط تتميز به الآية، بل يعتاد هؤلاء مالم يعتدْ هؤلاء، مثل كونه مألوفًا ومجربًا ومعروفًا، ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

الثاني: أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم، وإذا خُصَّ ذلك بعدم المعارضة، فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته، ويكون معتادًا لغيرهم؛ كالكهانة والسحر. وقد يأتي بما لا يمكن معارضته، وليس بآية لشيءٍ؛ لكونه لم يختص بالأنبياء. وقد يقال في طب أبقراط ونحو سيبويه: إنه لا نظير له، بل لا بد أن يقال: إنه مختصٌّ بالأنبياء، والطب والنحو والفقه، وإن أتى الواحد بما لا يقدر عليه غير نظيره، فليس مختصًا بالأنبياء، بل معروفٌ أن هذا تعلَّم بعضه من غيره، واستخرج سائره بنظره.

وإذا خَصَّ الله طبيبًا أو نحويًّا أو فقيهًا بما ميزه به على نظرائه = لم يكن ذلك دليلاً على نبوته، وإن كان خارقا للعادة، فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس، وهي طرق معروفة لغير الأنبياء.

والنبي قد علَّمَه اللهُ من الغيب الذي عَصَمَه اللهُ فيه عن الخطأ ما لم يعلمْه إلا نبي مثله ... »[(١)].

والمقصود أنَّ جنس خرق العادة ليس ضابطًا للمعجزة، بل يدخل معها غيرها، ولا يلزم من أن جنس خرق العادة متشابهًا أن تتشابه آيات الأنبياء مع ما يأتي به السحر، كلاَّ، وحاشا، وإنما المراد التنبيه على أنَّ آيات الأنبياء وإن كانت خارقة للعادة، فإنها لا تنفرد انفرادًا تامًا بهذا الوصف، بل يوجد ما يخرقها من غيرهم.

ذلك أن آيات الأنبياء -التي تسمَّى معجزات- ليست من جنس هذه الخوارق التي تأتي على يد السحرة والكهنة ومدعي النبوة، وليس طريقها التعلُّم، أو التعبد للشيطان كما في السحر والكهانة، بل هي مما لا يستطيعه الخلق، والله يجريها على أيدي أنبيائه إما تأييدًا لهم؛ كانشقاق القمر، وإما كرامة لمن تبعهم، كنبع الماء من بين أصابع المصطفى ﷺ، وهي في كل هذه الأحوال آيات دالة على صدقهم.

وآثار آيات الأنبياء إلى خير وبركة، بخلاف ما يقع من السحرة والكهنة الذين يستعينون بخرق العادة على الفساد والمعصية.

ولا يقال إن كرامات الأولياء ليس طريقها التعلم، فقد شابهت آيات الأنبياء؛ لأنَّ الكرامات المنسوبة للأولياء إن كانت حقًّا ففيها تأييد معجزات الأنبياء الذين يتبعونهم، ولا تأتي بخلاف ما يدعون إليه، ولولا اتباعهم للأنبياء لما ظهرت لهم هذه الكرامات.

الثاني: قولهم: « مقرون بالتحدي ».

هذا القيد من أعجب القيود المذكورة في المعجزة؛ لأنه يلزم منها أن تكون جميع

(١) النبوات (١/ ١٧٣- ١٧٤).

معجزات الأنبياء مما تحدَّوا به أقوامهم، وأن لا يوجد من عارض معجزاتهم، كما يلزم منه أن تكون خوارقُ مُدَّعِي النبوة وغيرهم من السحرة والكهنة مما لا يُتحدَّى به، ومما تقع معارضته، والأخبار تشهد بخلاف ذلك كله، وإليك نقض ذلك:

١ - أنه لم يرد أنَّ الأنبياء تحدُّوا أقوامهم بالمعجزات، فهذا صالح عليه السلام كانت الناقة آية له، ولم يرد أنه تحداهم أن يأتوا بمثلها، وهذا موسى أتى بالعصا واليد، ولم يتحدَّ فرعون وقومه بأن يأتوا بمثل ما أتى به، بل هم ظنوا أن ما أتى به سحرٌ، وهم كانوا على علم بالسحر، فظنوا أن يغلبوه، فهم الذين ابتدؤوا المعارضة، وليس هو.

هذا فضلاً عن أن أكثر الأنبياء لم تُحكَ آياتُهم فيُستدلَّ بها على هذا القيد الذي ذكروه في المعجزة.

فإن قيل: ما الداعي لصدور هذا النفي مع إمكانية وقوعه في آيات الأنبياء؟

قلنا: يرد الجواب من خلال النظر إلى آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أنجاه الله سبحانه وتعالى من النار ولم يتحدَّ بذلك قومه، وصالح عليه الصلاة والسلام آتاه الله الناقة استجابة لطلب قومه، ولم يقع التحدي بها، ومن زعم ذلك فقد جاء بأمر لم يرد ذكره في أي آية تحدثت عن هذا الأمر، وقل مثل ذلك عن الآيات الأخرى التي أيد الله بها أنبياءه.

فإن قيل: إن هذا القول منقوض بما حصل مع موسى عليه الصلاة والسلام، فقد تحداه فرعون ومن كان معه من السحرة فغلبهم؟

قلنا: ليس كذلك، إذ التحدي لم يحصل في المغالبة التي حدثت بين موسى عليه الصلاة والسلام مع السحرة، وغاية الأمر أنهم أرادوا معارضته، فغلبهم.

ولقائل أن يقول: إن كونها معجزة كافية في التحدي بها وإن لم يأت دليل يشهد على وقوع التحدي؟

قلنا: هذا منقوض بوقوع التحدي بالقرآن، فلو كان ذلك كافيا لما وقع التحدي به، ولو كان كافيا لآل الأمر إلى عدم الفائدة من التحدي به في آيات كثيرة، ولاستوى وجوده وعدمه، وفساد هذا ظاهر بيّن.

٢ ـ أنه قد ورد لهم عدد من المعجزات، وبعضها كان بين قوم مؤمنين؛ كما وقع لموسى ﵇ مع قومه بضربه الحجر فينبع منه الماء، وكما وقع كثيرًا لنبينا محمد ﷺ، فأين وجه التحدي في هذه المعجزات؟!

ولا يقال إن هذه تسمى دلائل النبوة، فإن المصطلحات لا تغير الحقائق؛ إذ كل ما قيل فيه دلائل نبوة، ففيه خرق للعادة، فهو معجز من هذه الجهة.

يقول ابن حزم ﵀: «... لو كان ما قالوا لسقطت أكثر آيات رسول الله ﷺ، كنبعان الماء من بين أصابعه، وإطعامه المئين والعشرات من صاع شعير وعناق، ومرة أخرى من كِسَر ملفوفة في خمار، وكتفله في العين فجاشت بماء غزير إلى اليوم، وحنين الجذع، وتكليم الذراع...، فإن ادعوا أنه عليه السلام تحدى بها من حضر وغاب، وإن تمادوا على أن كل هذه ليست معجزات ولا آيات = أكذبهم رسول الله ﷺ بقوله إذ فعل ذلك: أشهد أني رسول الله»(١).

٣ ـ أنه قد وقع التحدي من بعض أتباع الأنبياء، ففعلوا بعض المعجزات للاستدلال على صدق ما جاءت به الأنبياء؛ كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السمَّ (٢).

والذي يظهر أن الذي أوقع في هذا القيد والضابط عدة أمور، منها:

الأول: أن بعض المتكلمين جعل دليل الصدق الوحيد للنبي هو المعجزة، ثم جعل المعجزة التي هي دليل صدق النبي ﷺ القرآن فقط، يقول شمس الدين الأصفهاني (ت: ٦٨٨): «والدليل على نبـوة الأنبياء المعجزات، والدليل على نبوة محمد ﷺ القرآن المعجز نظمه ومعناه» (٣).

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم (٥/ ٦).

(٢) النبوات (١/ ١٤٠).

والأثر ذُكر عن «أبي السفر قال: نزل خالد بن الوليد الحيرة على أمير بني المرازبة، فقالوا له: احذر السم، لا تسقيكه الأعاجم، فقال: ائتوني به، فأتي به فأخذه بيده، ثم اقتحمه وقال: بسم الله. فلم يضره شيئا». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٠): "رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو مرسل، ورجالهما ثقات إلا أن أبا السفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد والله أعلم".

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية، لشيخ الإسلام (٢٢، ١٥٥).

الثاني: الغفلة عن جملة المعجزات الأخرى التي كانت للنبي ﷺ وللأنبياء من قبله، والنظر إلى المعجزة الكبرى للرسول ﷺ، وهي القرآن الذي وقع به التحدي، فتحدى الله الخلق بأن يأتوا بمثل سورة منه، ويظهر كذلك أنَّ تعميم هذا التحدي في المعجزات الأخرى كان سببًا في بلبلة بعض الأفكار المطروحة في مفهوم المعجزة، والله أعلم.

الثالث: قولهم: «سالم عن المعارضة».

وهذا شرط زائد، فالمتأمل في آيات الأنبياء يجد أنها سلمت من المعارضة.

وإذا أخذتَ بطريق الجدل، قلت لمن يشترط هذا القيد في معجزات الأنبياء: إذا كان القيد السابق -وهو التحدي- قد سقط، فإنه يلزَم منه أن تسقط نتيجته، وهي أن تسلم المعجزة من المعارضةِ.

وهذا الاحتجاج الجدلي لا يعني أنك تُسلِّمُ بإمكان أن تُعارَض آيات الأنبياء، فيؤتى بمثلها، كلاَّ؛ لأنَّ جنس آيات الأنبياء ليست من جنس ما يظهر على يد الساحر أو الكاهن أو مدَّعي النبوة، وهذا يعني أنه لا يمكن لأحد كائنًا من كان أن يعارضَها وينقضها بخارقٍ أقوى منها.

أما وقوع بعض المعجزات الشبيهة بآيات الأنبياء لبعض أتباع الأنبياء، فليس في هذا مناقضة ولا معارضة لآيات الأنبياء، بل فيها تأييد لآياتهم، وتصديق لها، ومن ذلك ما وقع لأبي مسلم الخولاني (ت: ٦٠)، لما دعاه المتنبي الأسود العنسي إلى أن يشهد أنه رسول الله، فقال: لا أسمع، أشهد أن محمدًا رسول الله، فأجَّج له نارًا، وطرحه فيها، فلم تضرَّه، وأنجاه الله منها، فكان يُشبَّه بالخليل عليه السلام، وجاء إلى المدينة فوجد الرسول ﷺ قد مات، ووَلِيَ أمرَ المسلمين أبو بكر، فقال له عمر لما رآه: الحمد الذي لم يمتني حتى أرى في أمة محمد من فُعِلَ به ما فُعِلَ بإبراهيم الخليل عليه السلام [١].

---

(١) ينظر في ترجمته وقصته: حلية الأولياء (٢/ ١٢٢، ١٣١)، وسير أعلام النبلاء (٤ / ٧)، والبداية والنهاية (٨ / ١٤٩).

وهذه الكرامة التي حصلت لأبي مسلم إنما وقعت لاتباعه للنبي ﷺ، ولم تكن ناره عظيمة كنار إبراهيم عليه السلام؛ إذ القاعدة أن كرامات الأولياء أقل من كرامات الأنبياء في القدر، وإن وقع الشبه بينهما بالحدث، والله أعلم.

والخلاصة: أن المقصود من هذا بيان الخلل الذي وقع في مفهوم الإعجاز، حيث جعل له المتكلمون شرائط طردًا وعكسًا، تثبت المعجزة بثبوتها وتنتفي بانتفائها، وهذا غير صحيح، فبعض هذه الشروط قد توجد، وقد لا توجد.

ولعلك تقول: هل يعني ذلك أن لا يقال بمفهوم المعجزة؟

والجواب: إنَّ الأسلم كما مضى التقيُّد بمصطلح القرآن، لكن إن قيل بمصطلح يرادف هذا المصطلح القرآني ويراد له أن يكون مقابلاً له في المعنى فلا بدَّ من ضبطه بضوابط سليمة تؤدي الغرض منه، ولما كان مصطلح المعجزة قد سار في الكتب وانتشر بين الناس، فمن المستحسن بيان ضوابطه التي يُعرَّف بها، دون أن يُترك هذا المصطلح بالكلية.

التعريف المختار للمعجزة:

بما أن المعجزة مصطلح كلامي نشأ عند المعتزلة ومن تبعهم فإننا إذا أردنا إعادة الأمر إلى ألفاظ القرآن مع بقاء مصطلح المعجزة فإننا يمكن أن نقول:

(المعجزة=الآية): العلامة الدالة على صدق النبي، التي لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلها.

فقولنا: (العلامة): انطلاقا من التعريف اللغوي للآية.

وقولنا: (الدالة على صدق النبي): لأن هذا هو الغرض من الآية، فإن الناس إذا علموا صدقه من خلال هذه الآيات آمنوا به إذا انتفت الموانع عندهم.

وقولنا: (التي لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلها): تنبيه على أنها من عند الله سبحانه وتعالى، يخص بها أنبياءه.

تنبيهات:

الأول: الآية المتحدَّى بها (القرآن) دليل من أدلة صدق النبي ﷺ، وليست هي الدليل الوحيد على صدقه، وعلى أنه مرسل من الله، بل هناك آيات عِدَّة تدلُّ على ذلك، سواءً أظهرها أمام الكفار أم أمام المؤمنين.

الثاني: أن هناك أمورًا أخرى غير الآيات التي تظهر على يديه تدلُّ على صدقه، ومن أشهرها وأعظمها معرفة أحواله وأخباره، وهي التي استدلَّ بها هرقل عظيم الروم على صحة دعوة رسالة محمد ﷺ، ولم يسأل عن معجزاته وما جاء به من الآيات الباهرات.

الثالث: إذا تأملت حال آيات الأنبياء المذكورة في القرآن وجدت أنَّ أغلبها آيات حسية انتهت بانتهاء النبي الذي وقعت على يده، وكذا يماثلها كثير من آيات النبي محمد ﷺ؛ كانشقاق القمر، وتكثير الطعام، ونبع الماء بين يديه، وغير ذلك من الآيات التي ظهرت على يديه.

أما الآيات المقروءة، فإن الله أنزل منها على بعض أنبيائه، فمما ذُكر منها: صحف إبراهيم، والتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وهناك غيرها مما لم يُذكر.

ولم يَرِدْ أنَّ الله تحدى بآياته المقروءة غير القرآن، فكلها كلام الله أنزله على رسله، لكن اختصَّ القرآن من بينها بخصائص، منها أنه آية خالدة لا يمكن تحريفه ولا تبديله، فهو محفوظ بحفظ الله له، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

الرابع: أن بقاءه وحفظه إلى هذا اليوم، وإلى ما بعده، من أدلة كونه صدقًا وحقًّا، وأنه من عند الله، إذ لم يتغير منه حرف واحد منذ أُنزل.

وإذا وازنت بينه وبين كتب الله، وجدت ما يأتي:

١ - أنها كلها كلام الله، بأي لغة كان نزولها، وأنها كانت معلومة مفهومة لمن نزل بلسانهم.

٢ ـ أن كتب الله السابقة تختص بمن نزلت فيهم، سوى القرآن، فإنه للعالمين جميعًا إنسهم وجنهم.

٣ ـ أنَّ هذه الكتب بجملتها ـ بما فيها القرآن ـ تشتمل على تشريعات وأحكام وآداب ومواعظ وأخبار غيبية عما مضى وعما سيأتي، ولا يتميز من هذه الجهة كتاب عن كتابٍ، سوى أن يكون أكثره مواعظ، أو أن يكون أكثره أحكامًا، وما إلى ذلك.

٤ ـ أنَّ القرآن لما امتاز عنها بأنه للإنس والجن، وأنه خالد إلى يوم أن يرفعه الله، فإنه حمل جملة هذه الأنواع المذكورة في الكتب السابقة، فهو مصدق لها ومهيمن عليها، فجاء كل ما فيه صدقًا في أخباره، وعدلاً في أحكامه، ومتوازنًا في مواعظه، وداعيًا إلى الله بكل ما فيه من كلامه.

٥ ـ ولما كان التخصيص لشيء من هذه الكتب إنما يكون بخبر عن الله، فإن القرآن اختصَّ بأن تحدى الله به كل الخلق، تحداهم به حتى بلغ معهم بالتحدي إلى أن يأتوا بسورة من مثل سوره، وهذا التحدي لا يزال باقيًا أبد الدهر.

ولم يَرِدْ أنَّ الله تَحَدَّى الخلق بغيره من كتبه، فبقيت هذه الخصيصة للقرآن دون هذه الكتب التي هي من كلامه.

  

المبحث الثالث

الآثار العقدية المرتبطة بمفهوم المعجزة

ظهر مما سبق أن التعريف الشائع لمفهوم المعجزة ليس مجرد ألفاظ يحصل بها بيان المفهوم، بل هو مرتبط بأصول عقدية أنتجته، وأن غالب الألفاظ المعرف بها يترتب بعضها على بعض، وسأكتفي هنا بمجرد الإشارة إلى بعض الآثار العقدية التي لها ارتباط بمفهوم المعجزة دون تطويل ببيانها، ومن أهم ذلك أمور ثلاثة:

أولاً: كون المعجز حقيقة هو الله لا المعجزة ذاتها:

يقول القرطبي (ت:٦٧١): «فأما المعجزة، فلفظ مأخوذ من الإعجاز، وذلك أنك تقول: عجز فلان عن كذا عجزًا: إذا لم يقدر عليه ولم يقم به، وأعجزته إعجازًا إذا جعلته يعجز. وتقول: أعجزني الشيء: إذا فاتك ولم تقدر عليه، وكلها راجعة إلى أن العاجز عن الشيء هو الذي لا يتمكن من الشيء ولا يقدر عليه، **ثم في تسمية هذه الأدلة التي تدل على صدق الأنبياء معجزات تَجَوُّزٌ، وذلك أن المعجز على التحقيق إنما هو خالق العجز**، وهذه الأسباب التي يقع العجز عندها تسمى معجزةً بالتوسع، وذلك من تسمية الشيء باسم غيره إذا جاوزه أو كان منه بسبب »(١).

وهذا الفَهم مبني على أنه لا فعل إلا لله، وأنه إنما يُنسب إلى غيره على سبيل المجاز، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨): «ومن لا يثبت فعلاً إلا لله يقول: الْمُعْجِزُ هو الله، وإنما سُمِّيَ غيره معجزًا مجازًا » (٢).

ولهذا القول ارتباط وثيق بالخلاف الواقع بين الأشاعرة والمعتزلة في مسألة خلق أفعال العباد، فالمعتزلة يرون أنَّ الفعل من العبد، والأشاعرة يناقضونهم في ذلك ويرون أن لا فاعل إلا الله، لذا أنكروا الأسباب، ورفعوا عن كلِّ مخلوق ما وهبه الله من طبائع، فالنار لا تحرق بذاتها والسكين لا تقطع بذتها، وهكذا قالوا في غير ذلك،

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد (ص: ٢٣٩).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥:٤١٩).

وجعلوا كل ذلك من فعل الله [(١)].

وإذا كان القرآن معجزًا على سبيل التجوُّزِ فقد سُلِبَ منه الإعجازِ، وجاز لقائل أن يقول: إن القرآن غير معجزٍ، ولا هو مما تُحُدِّي به، وبطلان هذا القول ظاهر بلا ريبٍ، وبهذا يكون الزعم مسقطاً لإعجاز القرآن بالكلية، وهذا مما يدل على تناقض من يثبت إعجاز القرآن، ثُمَّ يقول بهذه الدعوى، والله أعلم.

ومذهب السلف أنهم يثبتون أفعال العباد، وينسبونها إليهم حقيقة، لكن لا على سبيل الاستقلال، فليسوا على مذهب القدرية الذين يجعلون العبد يخلق فعله، ولا على مذهب الجبرية الذين يرون أن العبد مجبور على أفعاله[(٢)].

ثانيًا: أن المعجزة هي الدليل على نبوة الأنبياء:

يقول إمام الحرمين الجويني مقررا ذلك: «لا دليل على صدق النبي غير المعجزة»[(٣)].

ويقول شمس الدين الأصفهاني (ت: ٦٨٨) « والدليل على نبوة الأنبياء المعجزات، والدليل على نبوة محمد ﷺ القرآن المعجز نظمه ومعناه»[(٤)].

(١) قال الغزالي في تقرير موقف الأشاعرة من السببية: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا، وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا، بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنا لإثبات الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرا إلى كل المشاهدات، من المقترنات في الطب والنجوم والصنائع والحرف، فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقه على التساوق، لا لكونه ضروريا في نفسه، غير قابل للفوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلم جرا إلى جميع المقترنات". تهافت الفلاسفة: (ص ٢٣٨). والتفصيل في نقاش هذه المسألة العقدية طويل وشائك، ومحله كتب العقائد. وللاستزادة ينظر: كتاب دلالة المعجزة على صدق النبوة عند الأشاعرة: دراسة نقدية، للدكتور عبد الله بن محمد القرني.

(٢) ينظر في هذا: خلق أفعال العباد للبخاري.

(٣) الإرشاد الى قواطع الأدلة في أصول الدين للجويني (ص: ٣٣١) .

(٤) شرح العقيدة الأصفهانية ، لابن تيمية (٢٢ ، ١٥٥) .

إن المشكل في هذا الكلام أنهم حصروا الدلالة على النبوة بالمعجزة، وقد ترتب على هذا الحصرِ أمورٌ تتعلق بها، وهي نتاج عقلي لهذا الحصر، فاجتهدوا في ردِّ كلِّ ما يخالف حصرهم حتى لا يتناقضوا، وإن كان من سلك مثل هذا الطريق في الحصر لا بدَّ أن يتناقض، ومما ترتَّب على ذلك ما يأتي:

١ . أنهم أهملوا طرقًا كثيرةً تدلُّ على نبوة الأنبياء، وليست المعجزة وحدها هي الدليل، ولذا كان فريق من المتكلمين يخالف في حدِّ الدليل على نبوة الأنبياء بالمعجزة، ويجعل أدلة أخرى للدلالة على النبوة غير دلالة المعجزة، وهذا هو الصحيح، ومن قرأ في سبب إيمان بعض الصحابة عرف أنَّ استدلالهم على نبوة النبي ﷺ لم تكن بدليل المعجزة فحسب، بل كانت معاملة الرسول ﷺ وأخلاقه وما يدعو إليه من الخير من أكبر الأدلة على نبوته، وهي التي كانت سبب إسلامهم، بل لقد أدرك هرقل عظيم الروم نبوة النبي ﷺ بمعرفة أحواله ولم يتعرَّف على صدقه في نبوته بطريق المعجزة [(١)].

٢ . التفريق بين المعجزة والكرامة، فجعلوا المعجزة ما ظهر على يد النبي، والكرامة ما ظهر على يد الولي، وهذا التفريق اصطلاحيٌّ كما ترى، وليس شرعيًّا، لذا ورد عن بعض السلف تسمية كرامات الأولياء معجزات.

ولا يقال هنا إن هذا التفريق له ما يدعو له من حيث بيان الفرق في من وقع له ما يُسمَّى بالخارق للعادة، لأن خرق العادة المختص بالأنبياء لا يشاركه فيه غيرهم.

قال شيخ الإسلام: « ... ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزًا إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء -إن أثبت لهم خرق عادة- سمَّاها كرامةً، والسلف -كأحمد وغيره- كانوا يسمون هذا وهذا معجزًا، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك، بخلاف ما كان آية وبرهانا على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه. وقد يسمون

(١) للاستزادة في هذا الموضوع، ينظر شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ١٥٥ ـ ١٨١).

الكرامات آيات؛ لكونها تدل على نبوة من اتَّبعه الوليُّ، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آيةً وبرهانًا -وهو الدليل والعلَم على نبوة النبي- يمتنع أن يكون لغير النبي»[١].

ثالثًا: أثر الاختلاف في صفة كلام الله على تحرير حقيقة الإعجاز في القرآن:

لقد وقع خلاف معروف في كتب العقائد في القرآن، هل هو كلام الله سبحانه، أم عبارة عنه، أم حكاية عنه، وهل هو مخلوق، وهو موضوع طويل يؤخذ من كتب العقائد، ومن عرف هذه العقائد عرف سبب إيراد هذه المسألة هنا، وظهر له أثر الاختلاف في هذه المسألة عند المتكلمين في موضوع إعجاز القرآن، فالأشاعرة القائلون بأن كلام الله قديم وهو الكلام النفسي، فإن الكلام النفسي عندهم سيكون هو المعجز، وذلك مما لا يمكن أن يدركه أحدٌ، فكيف يطلب منهم التحدي بما لا يدركونه.

وإن كان المعجز هو القرآن الذي يتلى، فقد صرح متأخروهم بأن هذا الذي يتلى مخلوق، فوافقوا المعتزلة في هذه الحيثية، وخالفوهم بوجود الكلام النفسي.

وإذا كان مخلوقًا، فليس هو كلام الله، بل هو عبارة عنه كما يقولون، فكان المعجز العبارة، وليس القرآن الذي هو كلام الله.

ولما كان القرآن عندهم عبارة عن كلام الله سهل عليهم أن يقول قائلهم: إن نسبة الإعجاز إلى القرآن مجاز، وإن المعجز في الحقيقة هو الله.

أما المعتزلة، فيرون أن كلام الله لا يقوم به، وإنما يخلقه في غيره؛ لذا صاروا إلى القول بخلق القرآن، وهذا يجعل الإعجاز كائنًا في المخلوق دون أن يكون في كلام الخالق سبحانه، فكل ما يحتويه القرآن من لغة ونظم وبلاغة مخلوق، وهذا يجعلهم كذلك من أبعد الناس عن الحديث عن إعجاز القرآن، ومع ذلك تجد لهم كلامًا وجدلاً في إثباته، ويظهر أنَّ ذلك راجع إلى الحِجَاجِ واللِّجاج الذي كان يديره بعض

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤١٩).

الزنادقة في الاعتراض على القرآن من كونه كلام الله الذي هو صفته، أو ما يقع بين أهل الاعتزال ممن تبع أقوال الفلاسفة القدماء وترك الأدلة والحجج الشرعية التي في الكتاب والسنة من القول في كلام الله، فكانت هذه النقاشات قد ولَّدت القول بالإعجاز= حتى صار الإعجاز قولا من أقوال المعتزلة، وإذا صح هذا؛ فإن البحث في الإعجاز كان ردة فعل لهذه النقاشات، ولم ينشأ ابتداءً، ولا يخفى الفرق بين العلم الذي يُبنى ابتداءً، والعلم الذي يكون عن ردة فعل، وكل ما نشأ عن ردة فعل فلا يخلو -في الغالب- من أخطاء منهجية، ومع ذلك، فقد صار الإعجاز علمًا قائمًا بذاته له أصوله.

وإذا تأمَّلت قولهم بخلق القرآن، وعلاقته بالإعجاز؛ ظهر لك أمران:

الأول: مع قول المعتزلة بخلق القرآن؛ إلا أنهم أطبقوا على أنه معجز، قال القاضي عبد الجبار في معرض رده على القول بالإعجاز بالصرفة: «هذا القول يوجب أن القرآن ليس بمعجز، ويوجب أن يدل القرآن لو كان كلاما متوسطًا في الفصاحة، حتى يكون حاله في الإعجاز، وهو كذلك كحاله الآن، لأن المعتبر صرف هممهم ودواعيهم، فالركيك في ذلك والفصيح بمنزلة»[(١)].

وهذا الإطباق من المعتزلة في كون القرآن معجزا يُضعف قول البغوي (ت:٥١٦): «... فالقرآن معجز في النظم والتأليف، والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة، لا يشبه كلام الخلق؛ لأنه غير مخلوق، ولو كان مخلوقًا؛ لأتوا بمثله» [(٢)].

لكن تبقى ملاحظةٌ: أن المعتزلة تقوَّوا ببحث الإعجاز على ضعف قولهم في كون القرآن مخلوقًا، إذ مع إن الإعجاز ذاتي للقرآن عندهم، إلا أنه لا يخلو أن يكون مخلوقا.

وإنما قال البغوي هذا؛ لأن القرآن كلام عربي جاء على أسلوب العرب في خطابها، وهم كانوا يملكون ناصية البيان، فقد يجوز أن يأتوا بمثله على مذهب المعتزلة في كونه

(١) المغني (١٦/ ٣٢٥).

(٢) تفسير البغوي (٣/ ١٣٥).

كلامًا مخلوقًا، وإن كان الحال ليس كذلك؛ إذ كونه مخلوقًا ليس قرينة للقدرة على الإتيان بمثله، وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فلا يلزم من كونه مخلوقًا عند المعتزلة أن يستطيع الخلق الإتيان بمثله.

والفرق بين نظم الكلام وخلق شيء من المخلوقات بالنسبة للعرب؛ أنهم يملكون زمام الكلام بأساليبه وبلاغته، وأما القدرة على خلق شيء فإنها معدومة أصلًا.

الثاني: إذا تأملت قول النظام في أن الإعجاز بالصَّرفةِ، فإنه سيظهر لك أنَّ هذا القول أنسب الأقوال وأجراها على رأيهم في أنَّ القرآن مخلوق.

ولازم القول بالصرفة القدرة على الإتيان بمثل هذا المخلوق (أي القرآن بزعمهم)، وإذا كان الحال كذلك فإن القول بالإعجاز بالصرفة أنسب لقول المعتزلة بكون القرآن مخلوقًا، لكن المعتزلة تجاوزا هذا الأمر بإطباقهم على إعجاز القرآن، وردهم على القول بالصرفة.

ومناقشة قول المذاهب في (كلام الله)، وعلاقته بالمعجزة تطول، ولكني قصدت الإشارة الى ارتباط مفهوم المعجزة بهذا الأصل العقدي.

  

المبحث الرابع

أنواع آيات (معجزات) الأنبياء

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض ذكر أنواع المعجزات: «وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية؛ لبلادتهم وقلة بصيرتهم. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر كما قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا**[(١)]»[(٢)].

إنَّ الأنبياء الذين بعثهم الله إلى أقوامهم كثيرٌ، وقد قامت دلائل صدقهم على بعثهم، وظهرت لمن كان في عصرهم، وكان الله يؤيدهم بالآيات الدالة على صدقهم، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ في الحديث السابق، وإذا دققت في ما ذكره السيوطي في هذه الفقرة، ونظرت في أمر الأنبياء الذين وردت أخبارهم في الكتاب والسنة، ظهر لك ما يأتي:

١- أنَّ لكل نبي آية تدل على أنه مرسل من ربِّه، بدلالة الحديث السابق: «**ما من الأنبياء نبي إلا أُعطِي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ** ...».

٢- أنه لم يَرِد ذكر كل آيات الأنبياء، بل إن بعضهم لم يرد ذكر آيته مطلقًا؛ كإسحاق ويعقوب وغيرهم.

٣- أنَّ من آيات الأنبياء ما ظهر أمام الكفار؛ كناقة صالح، والعصا واليد لموسى، وغيرها. ومنها ما ظهر أمام المؤمنين، كانفجار الحجر بالماء لموسى، ونزول المائدة لعيسى، وغيرها.

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٧٤).

(٢) الإتقان (٥/ ١٨٧٣-١٨٧٤).

٤- أنَّ النبي قد تكون له أكثر من آية بيِّنة تدلُّ على أنه مرسل من ربه، كما كان ذلك لموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٥- ـ أنه لا يلزم أن تكون المعجزة من جنس ما برع به القوم، وإن كان قد حصل ذلك، وإلا فما الذي برع به قوم صالح لتكون الناقة معجزة له، وما الذي برع به قوم إبراهيم لتكون من معجزاته خروجه من النار المحرقة.

٦- إطلاق إن " أكثر معجزات هذه الأمة عقلية " لا يصح، لأنه لم يُذكر سوى القرآن أنه معجزة عقلية، أما باقي معجزات النبي ﷺ فهي حسية، بل إن معجزات النبي ﷺ الحسية أكثر من معجزات الأنبياء السابقين، ومن ثَم لا يصلح هذا التقرير الذي ذكره.

٧- أيضا لم تتمحض معجزة القرآن في العقل فقط، بل تتسم بالحس، وتتصف به، فالقرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، ويكتب في المصاحف، وهذا الجانب يتعلق بالحس لا العقل. والقصد في المعجزات الحسية هو النظر إلى أصلها كالعصا واليد، وهذا الأمر كله يعود إلى المصطلحات التي تحتاج إلى ضبط، وغالبا ما تتباين مفاهيمها لدى أصحابها، المقصود أنه لا يلزم أن تخلو كل معجزة عقلية من الجانب الحسي، ولا كل معجزة حسية من الجانب العقلي.

٨- الإخبار عن اختصاص بني إسرائيل بكثرة المعجزات الحسية لبلادتهم فيه نظر، إذ الأمر كان كذلك مع هذه الأمة، فهل اشتركت مع بني إسرائيل في ذلك الوصف؟!

٩- نعت بني إسرائيل بالبلادة يفتقر إلى الاستقراء والتتبع إذا كان مراده بالبلادة الغباء، أما إذا أراد به شيئا آخر فينظر فيه بحسب ما أراده.

وهذا التعميم ليس على إطلاقه، وينبغي اجتنابه، لأن الواقع يشهد بخلاف ذلك، وكيف تعتريهم البلادة مع حفاظهم على أنفسهم ومجتمعهم مئات السنين إلى يومنا هذا، والأمر بالعدل والإنصاف وتحري الصواب في القول والفعل مع الموافق والمخالف نادى به القرآن، وحث عليه، وأمر به.

١٠- قوله ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا**»، حديث يتطلب إفراده بمؤلف كامل يستوعب جميع مسائله، فأوله يدل على أن لكل نبي آية تدل على صدق نبوته، وهذه الآية تضطر من يراها من البشر ممن يوفقه الله للإيمان أن يؤمن بالنبي المؤيد بها، وجميع الأنبياء أيدهم الله بتلك الآيات وإن لم تذكر، كإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم ممن لم تذكر لنا آياتهم وأدلة صدقهم مع وجودها، ولا يستدعي هذا الأمر التكلف في البحث عنها.

ثم أخبر النبي ﷺ عن الأمر الذي تميز به وهو القرآن، مع أن الله أيده بغير ذلك، ولكنه خصه بالقرآن العظيم لفضله، وإلا فقد أوتي آيات كثيرة.

  

المبحث الخامس

وجه إعجاز القرآن

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: «لما ثبت كون القرآن معجزة نبينا ﷺ، وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز، وقد خاض الناس في ذلك كثيرا فبين محسن ومسيء...». ثم شرع في ذكر أشهر ما قيل في ذلك، وهو الإعجاز بنظمه، والإعجاز بالصرفة، والإعجاز بإخباره بالمغيبات.

ولعلنا نقف حول ما ذكر الوقفات الآتية:

١- الإعجاز يتعلق بالنظم العربي من كل وجوهه، لغةً وبلاغةً، ورصفًا وبناءً، وجودة وحسنًا في ألفاظه وأساليبه التي تميز بها، قال الباقلاني: «إن وجه الإعجاز مقصور على ما فيه من النظم والتأليف والتنصيف»، وقال الزملكاني: «وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به، لا مطلق التأليف»، وارتضاه ابن عطية فقال: « وكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد ﷺ. فإذا تُحدَّيت بذلك وعَجزت فيه علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح في نفسه، أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة»(١).

٢- الإعجاز بالصرفة -بفتح الصاد على الصحيح- وهو قول إبراهيم النظّام (ت:٢٣٢) ومن سلك مسلكه، ومفاد هذا القول: أن الله سبحانه وتعالى صرف العرب

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٥٢).

عن معارضة القرآن، وذلك أن العرب كانت لديهم القدرة التامة على معارضة القرآن، ولكن الله سبحانه وتعالى سلبهم تلك القدرة، وهذا مذهب فاسد يكاد الإجماع يقع على رده، والإعراض عنه، وقد فصل في ماهيتها بعض كُتاب العصر، وللدكتور عبد الرحمن الشهري بحث في هذا الموضوع[(١)].

قال ابن عطية: «والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام»[(٢)].

٣- من أبرز وجوه إعجاز الفرآن التي حُكيت: الإعجاز بما تضمنه من الإخبار عن قصص الأولين، وهذا نوع من الإخبار بالغيب، وبعضهم ذهب إلى أن وجه الإعجاز هو في إخباره عن المستقبل، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ [الروم: ١-٢].

هذه أشهر المذاهب في وجوه الإعجاز التي ذكرها المتقدمون، فجاء بعدهم بعض المعاصرين، ولم يقتصر على تلك الأوجه، بل جعل القرآن معجزا في كل فن من فنون الحياة، وفي شتى مجالاتها، وهذا الاستكثار من وجوه الإعجاز غير مقبول، بل كل أمر خلا عن التحقيق العلمي -كما هو الحال في كثير مما يُذكر في وجوه الإعجاز لدى المعاصرين- فلا يتلقى بالتسليم والقبول.

٤- لو تأملنا تلك الأوجه المذكورة لدى المتقدمين أو ما أضافه المعاصرون فإننا لا نجد أي وجه من تلك الوجوه وقع التحدي به سوى الوجه المتعلق بنظم القرآن

(١) عنوان الكتاب: (القول بالصرفة في إعجاز القرآن: عرض ونقد).

(٢) تفسير ابن عطية (١/ ٥٢).

العربي وبلاغته، وأدلة ذلك كثيرة من أهمها: أن هذا الوجه هو الذي ينتظم فيه جميع سور القرآن، ويقع التحدي به في أي سورة من السور، بخلاف غيره مما ذكروه من وجوه الإعجاز، فلو جئنا إلى سورة الإخلاص لوجدنا أنها بتمامها معجزة، ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، وهي مما وقع التحدي به، لكن هل يقع فيها شيء من وجوه الإعجاز الأخرى؟

الجواب: لا، إذ لم تتضمن الإخبار عن الأمور الماضية أو المستقبلية، فلم يطرد ما ذكروه في هذا الوجه، وقل مثل ذلك في بقية أنواع الوجوه المذكورة، ومن ثم فإن التحدي لم يكن بأي شيء يتعذر على العرب أن يأتوا بمثله لعدم علمهم بماهية هذا الشيء، وإنما وقع التحدي بشيء برعوا فيه وبلغوا فيه مبلغا عظيما؛ ألا وهو التفنن في البيان، واتباع الأساليب البليغة في الكلام، فلما جاء القرآن عجزوا عن مجاراته وأعلنوا استسلامهم، أما بقية الوجوه فلم يقع بها تحدٍّ وإن كانت من وجوه الإعجاز.

والقصد من هذا كله معرفة مصدر هذا الكتاب، وأنه منزل من عند الله، سواء عرفنا المعجز المتحدى به أو غير المتحدى به، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ [الجمعة: ٣]، حيث أخبر عن هؤلاء القوم الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد، ولم يكن في المدينة آنئذ إلا اليسير، فوقع هذا الإخبار كما ذكر.

كذلك أيضًا أخبر الله سبحانه وتعالى أن أبا لهب قد خاب وخسر، وهذا يعني أنه سيموت كافرا مكذبا بالإسلام، ومعلوم أن أبا لهب جاهر بالعداء للنبي ﷺ، ونأى بنفسه عن الخير والهدى، وهو أمر يُجمع عليه الموافق والمخالف، ثم إن الوعيد الذي حكاه الله بحق أبي لهب كان من أوائل ما نزل من القرآن، وقد عاش أبو لهب بعدها سنوات عدة ومات مكذبا وكافرا، فصدق فيه هذا الخبر.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، والأمثلة في هذا الباب كثيرة، وقد وقعت كما أخبر القرآن عنها، ولم يتخلف منها خبر قط، أو وقع بخلاف ما أخبر عنه، وهذا شاهد على أن هذا القرآن دليل من دلائل الصدق على نبوة نبينا،

وأن ما وقع التحدي به فلا يزال كذلك في كل عصر ومصر، وجميع ما ذكروه من وجوه الإعجاز هو دليل من دلائل الصدق، لكن يلزم التفريق بين المتحدَّى به وغير المتحدَّى به.

٥- ألحق بعض المعاصرين ما يسمى بالإعجاز العلمي بما وقع به التحدي، فجعل الجميع مُتحدًّى به، وهذا منقوض بأن المراد منه لم يُعرف إلا في العصور المتأخرة، فكيف حصل التحدي به لأولئك الذين لم يكونوا يعرفون المراد منه بزعم القائلين به؟! وكيف يتسنى التحدي بهذه النظريات العلمية التي يظن أصحابها أنها من صميم العلم وقد أفصح القرآن عنها، مع أن ذلك الإفصاح متعلق بتفسير القرآن بمعان بعيدة عما هو معروف من لغة العرب، ولم يقُل به مفسرو السلف، ولا يكاد يسلِّم لهم أهل العلم ما زعموه في هذا الباب، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] حيث دلت هذه الآية عندهم دلالة قطعية على النظرية القائلة بأن الكون يتمدد، وليست الدلالة على ذلك قطعية كما زعموا، ولا ننكر بأن دلائل النبوة ليست على درجة واحدة من القطع أو الظن، لكن أن يترقى الأمر إلى التحدي فلا يمكن حصوله بغير القطعي.

والذي أوقع هؤلاء في هذا التعدي هو قصور باعهم في أصول التفسير، وعدم الاطلاع على قواعد أهل العلم في التفسير، فتحصلت نتائج غير مقبولة لأنها مبنية على مقدمات خاطئة، ولو ثبت شيء من هذه القضايا العلمية فيُحكم بأنها من دلائل الصدق، لا أنها معجزات يُتحدى بها.

٦- قول السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فزعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات».

هذا قول الأشاعرة في صفة الكلام، فكلام الله سبحانه عندهم معنى نفسي قديم قائم بالذات، وهو واحد لا تعدد فيه، ليس بحرفٍ ولا صوت، بخلاف الكلام

اللفظي، فهو مخلوق عندهم، والقديم هو المعنى النفسي[1]، وينسب القول بأن الكلام القديم هو المعجز للإمام أبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد رده السيوطي بناء على قولهم أيضا فقال: «وهو مردود؛ لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به»، فكيف يتحدى بما لا يمكن الوقوف عليه وهو الكلام القديم، أما مذهب أهل السنة فالمتحدى به هو كلام الله ذاته، والقرآن كلام الله على الحقيقة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولم يقل: عبارة كلام الله، ولو كانت عبارة كلام الله لجاءت في أي موطن إشارة إلى مثل هذا الحذف؛ فيقال: إن هذا هو عبارةٌ عن كلام الله وليس كلام الله، ومن لطائف إجازات بعض القراء أن أحدهم إذا أجاز قارئا أسند إجازته من شيخه إلى الله عز وجل، مختتما إياها بعن محمد ﷺ عن جبريل عن رب العالمين، وهذا سند متصل إلى الله سبحانه وتعالى في القرآن؛ لا نقص فيه ولا زيادة، بل قرئ كما كان زمن النزول، وهذا دليل تاريخي واقعي من دلائل الصدق، ولا يوجد كتاب حظي بهذه العناية التامة سوى كتاب الله.

٧- قول السيوطي فيما حكاه عن ابن عطية: « فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر قد انتهى في مدة موسى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في زمن محمد ﷺ »[2].

هذه المسألة تفتقر إلى دليل، ويبدو أن أول من أشار إليها هو الجاحظ[3]، ولم يرد في المعجزة ذكر القيد الذي ينص على بروع القوم بجنس المعجزات، وإنما منشأ هذا الضابط ما حصل من خبر موسى عليه الصلاة والسلام؛ حيث جاء بالعصى التي

(١) وفي هذا نجد موافقة الأشاعرة عقيدة المعتزلة في القول بخلق القرآن في الكلام اللفظي دون القديم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (١/ ٤٦).

(٣) ينظر: الرسائل للجاحظ (٣/ ٢٧٩).

تحولت إلى حيَّة مقابل السحر الذي كان من السحرة، ومن هنا أتت فكرة كون الأنبياء يأتون بما برع به أقوامهم، وهذا غير مطرد في جميع الآيات، ويدل على ذلك:

- أن بعض الأنبياء كان لهم أكثر من معجزة، ولا يلزم أن تكون كل معجزاتهم هذه من جنس ما برع بها أقوامهم، ومن ذلك: أن خروج إبراهيم من النار كان معجزة، فما الذي برع به قومه في هذا المجال؟!

- أن من يُمثِّل لهذه المسألة يذكر بروع قوم موسى بالسحر، وقوم عيسى بالطب، والعرب بالفصاحة والبلاغة بالنظم وتصريف القول، فجاءت معجزة كلٍّ من هؤلاء الأنبياء وِفْقَ ما برع به قومه، وهذا الكلام يدخله النقد السابق، ويضاف إليه الآتي:

١- من أين جاء أن قوم عيسى برعوا بالطب؟ إن عيسى قد أرسل إلى بني إسرائيل[(١)]، ولم يشتهر عنهم أنهم برعوا بالطب، ولعل أول من قال بهذا كان في ذهنه أن معجزة نبينا ﷺ الكبرى كانت من جنس ما برع به قومه، فأجرى ذلك على غيره، ولما رأى من عيسى إبراء الأكمه والأبرص ظنَّ أن قومه برعوا بالطب.

٢- لو كان ما قالوه صحيحًا، فهل برع قوم عيسى بالكهانة ودعوى علم الغيب، وهو يقول لهم: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩]؟!

٣- لو نظرنا إلى المعجزات الأخرى التي أيَّد الله بها أنبياءه لم نجد هذا القيد، ولا صلة بين ما أيد الله كل واحد منهم من الآيات بهذا القيد المذكور، فهذا خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أجمع قومه أمرهم على إحراقه، فأنجاه الله من ذلك الحريق، وكانت معجزة له، فهل كان قومه بارعين في الدخول إلى النار والخروج منها

---

(١) قرر رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسي أن اليهود ما كانوا على علم بالطب الطبيعي فيقول: "كانت صناعة الطب في المشرق في ذلك الزمان كما هي اليوم، فإن اليهود في فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التي وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ"، انظر: محاضرات في النصرانية(ص:٢١). وكلامه يشهد له تاريخ العلوم والأقوام.

دون أن يمسهم شيء؟ لم يكن الأمر كذلك، وكذلك نبي الله صالح، حيث أعطاه الله الناقة آية له على نبوته، ولم يكن قومه بارعين في هذا الشيء، وقل مثل ذلك في بقية المعجزات، فلا يلزم أن تكون المعجزة من جنس ما برع به القوم، وإنما يلزم أن تأتي المعجزة دالة على صدق النبي فقط، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**»[1]، «والمعنى: أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها...، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه، بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه؛ لكن قد يجحد فيعاند» [2]، ولم يرد في كلامه ﷺ ذكر ذلك القيد الذي ينص على بروع القوم بجنس المعجزات.

  

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٦ ط السلفية).

المبحث السادس: تنبيهات حول معجزة القرآن

تحدث المؤلف في الفصل الأخير الذي عقده عن جملة من التنبيهات المتعلقة بالإعجاز، ولعلنا نستعرض أهمها مع التعليق عليها في الآتي:

١- القدر المعجز من القرآن، ذلك أن الله تحدى الطاعنين في القرآن بأن يأتوا بمثله، ثم آل الأمر إلى عشر سور، ثم سورة، فعجزوا عن ذلك كله، واستنبط بعض العلماء من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: ٣٤] جواز كون التحدي بآية من القرآن، لأنه يصدق عليها وصف حديث مثله[١]، وفي ذلك نظر؛ لأن الأصل الأخذ بالمنصوص عليه في القرآن، والأولى اعتماد المنطوق الصريح، وقد جاء التصريح بسورة، ولم يأت بآية، والسبب في رد هذا الاستنباط والبقاء على ما أتى التصريح به في القرآن هو أن التحدي كائن بقطعة لها مبدأ وخاتمة، مع اشتمالها على موضوع أو أكثر، أما الآيات فيرتبط بعضها ببعض من جهة اللفظ، وبعضها قد يكون كلمة، وبعضها قد يكون من الأحرف المقطعة بناءً على اختلاف العادين، فالكوفيون يعدون{الم} آية، ومثل هذه الآيات مظنة ألا تدخل ضمن حد الإعجاز، ومن ثم نبقى على المنصوص عليه، وهو الإتيان بسورة من مثله.

ثم إن الإتيان بآية أمر سكت عنه الشارع، وما سكت عنه فلا يقال فيه بشيء، كذلك قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: ٣٤] لفظ مجمل، وقد جاء بيانه في أكثر من موطن، وذلك أن هذه الآية من سورة الطور، وسورة الطور من أوائل ما نزل بمكة، فأتى بعدها آيات عديدة تبين المراد بلفظ: ((الحديث)) الذي جاء في تلك الآية، وأن المراد منه هو الإتيان بمثل القرآن أو عشر سور أو سورة واحدة، والله أعلم.

٢- خلاف العلماء في كون إعجاز القرآن يعلم بالضرورة أو الاستدلال، وهذا أمر أقرب إلى الجدل منه إلى علوم القرآن، وذلك أن من عاش في عصر التنزيل

(١) ذُكر ذلك عن بعض أصحاب الإمام أحمد، ورجحه ابن حزم، ومال إليه ابن تيمية. ينظر: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٥٥-٣٥٧).

قد يكون علمه بإعجاز القرآن (المرتبط بنظمه العربي الذي وقع به التحدي) ضروريا، أما من جاء بعد ذلك ولا سيما بعد أن فسد اللسان، ودخلت العجمة إلى ألسنة الكثيرين؛ فإن علمه بالإعجاز موقوف على النظر والاستدلال.

٣- خلاف العلماء في تفاوت القرآن في مراتب الفصاحة، بعد اتفاقهم على أنه في أعلى مراتب البلاغة، ومنع بعضهم القول بوجود فصيح وأفصح؛ لكون القرآن جاريا على سنن العرب، ونزل بلسانهم، وهذا موجود عندهم، لكن نقول لحل هذا الإشكال: إنه في الرتبة الأعلى من الفصاحة، ثم بعد ذلك قد يكون فيه ما هو بعضه أفصح من بعض، ولا يعني ذلك أن المفضول هنا يكون في رتبة ليست من الفصاحة، بل هو في رتبة الفصاحة مثل الأول، لكنها فصاحة متفاوتة، ويشهد لذلك ما ورد من أحاديث مرفوعة في تفاضل بعض سور القرآن وآياته، والله أعلم.

٤- دخول الجن في جملة التحدي للإتيان بمثل هذا القرآن، وقد دل على ذلك صريح القرآن في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وهذا يعني أن جميع المكلفين يندرجون في هذا الخطاب، ولا يُلتفت إلى الاحتمالات التي لا تُبنى على الأدلة، ولا تشهد لها القرائن، ولا يلتفت إلى كون الجن يعرفون العربية أو لا يعرفونها؛ لأن الأدلة تدل على معرفتهم بها، وقد قص الله في القرآن حضور نفر منهم لسماع القرآن، وفهمهم له، وقيامهم بالدعوة إليه وما دل عليه، ولا يؤثر هذا في كونهم أقل فصاحة من البشر أو لا.

ثم إن ما حُكي عنهم أنهم يصاحبون الشعراء ويرشدونهم لقول الشعر، يدل على براعة الجن في اللغة لو ثبت ذلك.

٥- هل يُقال: إنَّ غَيْرَ الْقُرْآنِ من كلام الله معجزٌ؛ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ؟

الجواب: إن أريد بذلك أنه متحدًّى بها فقد سبق بيان أن التحدي لم يقع في شيء من المعجزات سوى القرآن، وذلك أن تحدي الطاعنين في القرآن جاء صريحا في آيات عديدة بأن يأتوا بحديث مثله، بخلاف غيره فلم يُتحدَّ المخالف في أي آية من الآيات التي أيد الله بها أنبياءه.

أما إذا قلنا بأنهما معجزان في تضمنهما وجوها من وجوه الإعجاز كالإخبار عن أمور الغيب وعدم قدرة البشرية في المجيء بما أتى به النبي من رب العالمين= فهما معجزان من هذه الجهة، ولا يشك في ذلك، فقد جاء في التوراة والإنجيل أمور غيبية صريحة، من أبرزها الإخبار عن بعثة النبي محمد ﷺ، وكذلك ما يتعلق بأحوال القيامة ومصائر الناس فيها، وغير ذلك مما هو متوقف علمه على الغيب، كل هذه تتفق مع القرآن، لاتحاد المصدر، مالم تُحرف تلك الكتب وتُبدل كما حصل بعد ذلك، وإلا فإن الأصل هو توافق هذه الكتب السماوية في الإخبار عن هذه الأمور الغيبية لا الاختلاف والتباين(١).

وقد تميز القرآن بمميزات أخرى كالحفظ والاستمرار، فهو حجة الله الباقية على الخلق إلى أن يأذن الله برفعه في آخر الزمان.

(١) مما يدل على ذلك ما جاء عن الشعبي، أن عمر بن الخطاب، قال: إني كنت أغْشى اليهودَ يومَ دراستهم، فقالوا: ما من أصحابك أحد أكرم علينا منك، لأنك تأتينا. قلت: وما ذاك إلا أنِّي أعجب من كتب الله كيف يُصَدِّق بعضها بعضا! كيف تصدق التوراةُ الفرقانَ، والفرقانُ التوراةَ! فمَرَّ النبي ﷺ يومًا وأنا أكلمهم، فقلت: أنشدكم بالله وما تقرؤون من كتابه، أتعلمون أنه رسول الله؟ قالوا: نعم. فقلت: هلكتم، والله، تعلمون أنه رسول الله ثم لا تتبعونه! فقالوا: لم نهلك، ولكن سألناه: من يأتيه بنبوته؟ فقال: عدونا جبريل؛ لأنه ينزل بالغلظة والشدة والحرب والهلاك ونحو هذا. فقلت: فمن سِلْمُكم من الملائكة؟ فقالوا: ميكائيل؛ ينزل بالقطر والرحمة وكذا. قلت: وكيف منزلتهما من ربهما؟ فقالوا: أحدهما عن يمينه، والآخَر من الجانِب الآخَر. قلت: فإنه لا يَحِلُّ لجبريل أن يُعادِي ميكائيل، ولا يَحِلُّ لميكائيل أن يُسالِمَ عَدُوَّ جبريل، وإني أشْهَد أنهما وربهما سِلْمٌ لِمَن سالمُوا، وحَرْبٌ لِمَن حارَبوا. ثم أتيتُ النبي ﷺ وأنا أريد أن أخبره، فلما لقيته قال: «ألا أُخبرك بآيات أنزلت عَلَيَّ!». قلت: بلى، يا رسول الله. فقرأ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾. حتى بلغ: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ . قلت: يا رسول الله، والله ما قمتُ من عند اليهود إلا إليك لأخبرك بما قالوا لي وقلتُ لهم، فوجدت الله قد سبقني. أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٢٧) (٣٦٥٤)، وابن جرير (٢/ ٢٨٧)، وابن أبي حاتم (١/ ١٨١) (٩٦٠). قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٤٠) بعد نقله لإسنادي الطبري وابن أبي حاتم: «وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدَّث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر؛ فإنه لم يدرك وفاته». وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٦/ ١٧٨ – ١٧٩) (٥٦١٨) بعد نقله بإسناد إسحاق ابن راهويه: «هذا مرسل صحيح الإسناد». وقال السيوطي: «صحيح الإسناد، ولكن الشعبي لم يدرك عمر».

الخاتمة

الحمد لله الذي وفق إلى التمام، ويسر الكتابة في هذا الموضوع، ومن أبرز ما ظهر من **النتائج** في هذا البحث ما يأتي:

١. لم يأت السيوطي بجديد في تعريف المعجزة، مع وجود علماء سبقوه كان لهم ملاحظات على هذا التعريف.

٢. أن السيوطي لم يكن مجرد ناقل في موضوع إعجاز القرآن، بل كان له استدراكات على بعض من نقل عنهم.

٣. أن الكلام في إعجاز القرآن أثر من آثار صفة الكلام الإلهي.

٤. أن الإعجاز المتعلق بالنظم العربي للقرآن يظهر في كل آية، وأما ما عداه من أنواع الإعجاز فيتخلف عن كثير من الآيات.

٥. أنه يلزم في المعجزة أن تكون دالة على صدق النبي، ولا يلزم أن تكون مما اشتهر به قوم النبي.

التوصيات:

١- العناية بأنواع علوم القرآن التي ذكرها السيوطي نوعًا نوعًا؛ بالشرح والاستدراك والتتميم.

٢- حاجة موضوع إعجاز القرآن إلى مراجعات تقويمية من خلال بحوث علمية محكمة.

٣- دراسة استدراكات السيوطي على من سبقه في موضوع إعجاز القرآن.

  

فهرس المصادر والمراجع

١. **أبكار الأفكار في أصول الدين**، سيف الدين الآمدي، تحقيق: د. أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٢. **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، دار الوطن للنشر، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٣. **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة، ط١، ١٤٢٦هـ.

٤. **الإرشاد الى قواطع الأدلة في أصول الدين**، إمام الحرمين الجويني، تحقيق: الدكتور محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

٥. **إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني**، د. محمد بن عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ.

٦. **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام**، محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي – القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ.

٧. **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٨. **البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات**، لأبي بكر الباقلاني، عني بتصحيحه: الأب رتشرو يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٥٨م.

٩. **تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم مسندًا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين)**، عبد الرحمن ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ)؛ تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز، مكة، ط٣، ١٤٢٤هـ.

١٠. **تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)**، عبد الحق بن غالب ابن عطية؛ تحقيق وتعليق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وآخرين، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: قطر، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

١١. **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)**، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)؛ تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٢. **تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)**، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٣. **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، محمد بن جرير بن الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرين، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٤. **تهافت الفلاسفة**، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط٦.

١٥. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن وآخرين، دار العاصمة، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٦. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، تصوير دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق).

١٧. **رسائل الجاحظ**، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

١٨. **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن الذهبي؛ تحقيق: جماعة من المحققين؛ إشراف: شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٩. **شرح العقيدة الأصفهانية**، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية -بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٠. **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢١. **علوم القرآن بين البرهان والإتقان**، د. حازم سعيد حيدر، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٢. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، ١٣٧٩هـ.

٢٣. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤٣١هـ.

٢٤. **محاضرات في النصرانية**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي – القاهرة، ط٣، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٦م.

٢٥. **مداخل إعجاز القرآن**، محمود محمد شاكر، دار المدني، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٦. **المصنف**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة – مؤسسة علوم القرآن، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م.

٢٧. **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، للقاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي، تحقيق: د. مصطفى حلمي ود. أبو الوفاء الغنيمي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٢٨. **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون– دار الفكر: بيروت، ط: ١٣٩٩/ ١٩٧٩م.

٢٩. **النبوات**: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

  

فهرس الموضوعات